تردي الأمة في مهاوي التقليد[١]

لقد بلغ التقليد بالعلماء حدًّا جعلهم يرون أن من خرج من مذهب إلىٰ مذهب يجب تعزيره، واسمع ما يقوله الشيخ العلامة المقبلي فيما أحدثته المذاهب من تفريق الكلمة الإسلامية، وما أورثته من بغضاء وشحناء في قلوب المسلمين: استحكمت مفسدة التفرق وأعيت كل طبيب إلىٰ أن صار جماعة يصرحون بالتزام مذهب معين، وربما صرح بعضهم بوجوب ذلك، ويسمون ترك ذلك تخبطًا، حتىٰ رأيت لبعض المفتين من أهل مكة في العصر القريب منا، وقد سئل عن رجل انتقل من مذهب إلىٰ مذهب، فقال: المنتقل بحجة وبرهان يجب تعزيره، كيف المتنقل بلا حجة ولا برهان؟ - هكذا ذكره -.

فانظر إلىٰ أين تدرج الباطل، وكل زمان يرحم علىٰ ما قبله، نسأل الله العافية[٢]».

وفي كتاب المغرب لابن سعيد في سنة ٣٢٦هـ عاد أصحاب مالك والشافعي إلىٰ القتال في المسجد الجامع العتيق، وكان في الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة، وللشافعي مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث فقط، فلما زاد قتالهم؛ أرسل الإخشيد من نزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع، فكان لا يفتح إلا في أوقات الصلاة[٣].

---

(١) مجلة الهدي النبوي (١٢/ ١٣٦٧).

(٢) العلم الشامخ لصالح بن مهدي المقبلي، علامة اليمن ص(٢٢١) ط(١).

(٣) (صـ٢٤/ جـ ٤) فانظر من أي عهد كانت هذه المذاهب سببًا في التقاتل بين المسلمين. من عشرة قرون أو أكثر.

بل لقد بلغ الخلاف حده حتىٰ أصبح الحنفي لا يجيز زواج ابنه من شافعية، ولكن حنفيًّا آخر رد عليه بقوله: يجوز قياسًا علىٰ الذمية! واغش المساجد الكبرىٰ؛ وسيروعك أن تجد هنا صلاة جماعة، وهناك أخرىٰ، وفي الضريح ثالثة، وتسأل عن السبب، أهم يهود ونصارىٰ؟ أهم كاثوليك وبروتستنت.

فيقال لك: كلا، بل شافعية وأحناف، وكل جماعة تبطل صلاة الأخرىٰ.

ولقد وقع معي وأنا طالب في طنطا أن صليت الصبح وكنت إمامًا.

فما راعني إلا أن رأيت المؤتمين ينفضون لاعنين ساخطين علىٰ «حتة العيل» الذي لا يدري كيف يصلي، وسألت عن السبب.

فقيل لي: لأنك لم تقرأ السجدة ولم تسجد!

وفي الأزهر يكيد أصحاب كل مذهب لأصحاب المذهب الآخر، وهناك أوقاف وقفت لمن يتبعون مذهبًا معينًا.

وفي عقود النكاح تسمع المأذون يقول: «زوجتك إياها علىٰ كتاب الله وسنة رسول الله، وعلىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان».

يا رحمتاه!! يا رحمتًا للسالفين، لم تنفع عقود نكاحهم؛ لأنها لم تك علىٰ ذلك المذهب. أرأيت إلىٰ أي حد بلغ التفريق؟ إلىٰ أي مدًىٰ بلغ جرم التقليد؟

بل في مصر لا يجوز أن يتولىٰ القضاء إلا حنفي المذهب.

وهكذا فرقت المذاهب بين المسلمين؛ حتىٰ أصبحوا يتعادون، ويتلاحون لا لشيء إلا لأن هذا مالكي وذاك شافعي.

والأئمة رضوان الله عنهم برءاء من ذلك كله، وما طلبوا من إنسان تقليدهم، بل نعوا أشد النعي علىٰ مقلديهم.

وإليك ما قال الأئمة في هذا، قال ابن حنبل: «لا تكتبوا عني شيئًا، ولا تقلدوني، ولا تقلدوا فلانًا وفلانًا، وخذوا من حيث أخذوا».

ويقول مالك: «إنما أنا بشر أخطيء وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

وقال الشافعي: «إذا وجدتم عن رسول الله سنة خلاف قولي، فخذوا السنة ودعوا قولي».

وقال أبو حنيفة: «ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلىٰ العين والرأس، وما جاء عن أصحابه اخترنا، وما كان من غير ذلك فنحن رجال وهم رجال»[(١)].

أرأيت إلىٰ هؤلاء العلماء كيف طالبوك بجعل حجتك من كتاب الله، وسنة رسول الله، وبعدم تقليدهم في شيء؟

أرأيت إلىٰ كرامة المؤمن الفكرية كيف تتجلىٰ في كلمة أبي حنيفة: «نحن رجال وهم رجال»، ومع ذلك وجد من يقول بأن لابد من مذهب، ومن لا مذهب له فشيخه الشيطان.

حتىٰ لقد أصدر علماء الحنفية فتوىٰ بإغلاق باب الاجتهاد من سنة (٤٠٠هـ)!!

بل قال النووي: الاجتهاد نوعان: مستقل، وقد فقد من رأس المئة الثانية، فلم يمكن وجوده. ومنتسب «يعني المجتهد في مذهب معين، وهو باق إلىٰ أن تأتي أشراط الساعة»[(٢)].

---

(١) رسالة المؤمل في الرد إلىٰ الأصل الأول ص(١٤ - ٢٣) لأبي شامة المتوفىٰ سنة ٦٦٥هـ.

(٢) كتاب الفكر السامي للحجري الربع الرابع ص (٢٦٥).

يعني النووي بهذا أن الاجتهاد محصور في داخل المذاهب فقط، أما أن تجتهد لمذهب جديد، فذلك قد انقضىٰ عهده من رأس المائة الثانية. وهكذا يضيقون رحمة الله، ويحجرون علىٰ العقول، ويأبون إلا تصفيد الألباب بأغلال التقليد، الذي حاربه الإسلام كما حارب الشرك، فالتقليد أس كل بلاء.

وما استمسكت أمة بالتقليد إلا وقفت في مكانها جامدة متحجرة، لا تناسمها حضارة، ولا يرف عليها إشراق من حرية الفكر الصحيحة... أما كلمة العقل الحر، الذي لا يتقيد بغير ما أنزل ربه، ولا يتأسىٰ بغير رسوله العظيم، فهي كلمة عز الدين ابن عبد السلام، إذ يقول عن الأئمة الأربعة: «لم يكونوا رسلًا لا تجوز مخالفتهم[1]»... تلك كلمة حق، فهل يسمعها من له قلب؟...

---

(١) الفكر السامي الربع الرابع ص(٢٤٠) ونحب هنا أن نقص قصة صغير للسادة العلماء؛ ليعلموا إلىٰ أي حد كان العلماء من قبل هم القادة، وهم الزعماء، وكانوا بحيث ترتعد فرائص الملوك فرقًا منهم:

في يوم قال ابن عبد السلام لأحد سلاطين بني أيوب: ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك مصر، ثم تبيح الخمور؟

فقال السلطان: هل جرىٰ هذا؟ قال: نعم، الحانة الفلانية تباع فيها الخمور.

فقال السلطان: يا سيدي، أنا ما عملته، هذا من زمان أبي. فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا علىٰ أمة، فرسم السلطان بإبطال الحانة، وسئل الشيخ بعد ذلك: أما خفته؟

فقال: والله يا بني لقد استحضرت هيبة الله تعالىٰ فصار السلطان قدامي كالقط».

طبقات السبكي (جـ٥/ صـ٨٢)، ترىٰ كم في مصر من حانة، وماخور، ومرقص تسفك فيه الأعراض، وكم في مصر من العلماء؟

تلك حال الناس في الأمم الإسلامية: تقليد حتىٰ لمن ثبت أنهم كانوا زائفي العقيدة، واتباع كل ناعق بلا روية، أما سنة الرسول فقد ضربوا بينهم وبينها ألف حجاب.

اخلع أيها الرجل عصابة التقليد من علىٰ عينيك وانظر: إن تحت قدميك هوة سحيقة تؤدي بك إلىٰ جهنم... ثم اسمع قول ربك: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧]...

وتعال معي نسمع حديث المسلمين في العقيدة هنا في مصر، وفي الأزهر، وتسمع: نحن أشعريون في العقيدة. أعني: أتباع الأشعري في عقيدته. وهناك في أمة أخرىٰ تسمع غير ذلك...

وتسأل أنت من أبو الحسن الأشعري؟ أرسول يجب الاقتداء به؟ أصحابي قد تعذر باتباعه؟ أرجل جعل حجته الكتاب والسنة؟

أم ما هو الأشعري؟ ومن يكون؟

أجاب عن هذا السؤال العلامة المقبلي في كتابه: العلم الشامخ صـ(٢٢٣): «أما الأشعري، فأين أثره الصالح في الكتاب والسنة، الذي انتفع به منتفع، واهتدىٰ به متبع؟ إنما جاء منه هذه الأنظار الشائنة لهؤلاء الكهنة؛ لما قدموه علىٰ نفوسهم، وآثروه علىٰ فطرة الله التي فطر الناس عليها».

هذا بينما يجعل ابن السبكي وتابعه القاضي زكريا في اللب أن من العقائد ما ينفع علمه ولا يضر جهله، وجعل من القسم الأول أن يعلم أن الأشعري إمام مقدم في السنة... فياويل من تقدم الأشعري... ويا ويحك يا عمر. ذهبت إلىٰ ربك ولم تعلم بذلك؟!

هذه الكتب الأشعرية تدرس الآن في الأزهر، علىٰ أنها تمثل عقيدة أهل السنة والجماعة. علىٰ أنها هي التي يجب أن يمتلئ بها القلب لينجو صاحبه من نار الخلود. ولو أنك تصفحت هذه الكتب لهالك ما فيها من وثنية؛ لهالك ما تبثه من مجوسية، لهالك أن ترىٰ فيها كل شيء إلا العقيدة الصحيحة، وهكذا يخرج الأزهر علماء لهداية الأمة.

ونحن لو تأملنا كتب الأشاعرة، وامتحنا علىٰ ما فيها عقائد المسلمين الصحيحة؛ لوجدنا أن كتب الأشاعرة تحكم عليها بالزيغ والإلحاد، واسمع ما يأتي من كتاب: المقاصد، وهو أهم كتب الأشاعرة (جـ١/ صـ٣١٨): «أثبت المتكلمون أن أجزاء الجسم هي الجواهر المفردة، وأنها متماثلة لا يتصور فيها اختلاف؛ ليثبتوا أن الأجسام متحدة بالحقيقة، وإنما الاختلاف بالعوارض. وهذا أصل ينبني عليه كثير من قواعد الإسلام؛ كإثبات القادر المختار، وكثير من أحوال النبوة والمعاد». تأمل أيها القارئ الكريم كيف يؤكد الأشاعرة أن لا بد من هذه النظرية: نظرية الجوهر الفرد أو الذرة أو الجزء الذي لا يتجزأ[1]، وكلها بمعنىً واحد.

لا بد من هذه النظرية الفلسفية، لكي يثبت كثير من أهم أصول الإسلام. لولا نظرية الجوهر الفرد ما ثبت وجود الله القادر المختار، ولا ثبتت نبوات ولا ثبت يوم القيامة!.

---

(١) من أراد زيادة اطلاع علىٰ هذه النظرية وعلاقتها بالفكر الإسلامي، فليقرأ كتاب: «مذهب الذرة عند المسلمين، وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود» تأليف دكتور ببنيس، ترجمة الأستاذ محمد أبو ريدة، وقد تحطمت الذرة وتحولت إلىٰ إشعاع؛ فماذا يقول الأشاعرة؟

يا ترىٰ كم من المسلمين بل حتىٰ من العلماء الأزهريين يفقه حقيقة هذه النظرية، التي بدونها لا يثبت الإسلام؟

أكان يعرفها رسول الله؟ كلا، وإلا لبينها ليثبت لنا بها القادر المختار، وأنه نبي، وأن هناك قيامة، أَعَرِفَهَا عمر؟ أَعَرِفَها ابن حنبل؟ أعرفها مالك؟ أعرفها البخاري؟

واكتفي بهذا، وللقارئ الكريم أن يتصور إلىٰ أي مدىٰ، بلغنا في حسن الاعتقاد نحن الأمم الإسلامية؛ هذه النظرية الفلسفية ما ابتدعها الأشاعرة؛ وإنما سرقوها، سرقة ظاهرة من فيلسوف يوناني قبل سقراط اسمه ديمقريطس؛ كان ينكر أن للإله تأثيرًا في الخلق؛ فاخترع هذه النظرية؛ ليثبت أن العالم خلق صدفة.

فالعالم من قبل كان ذرات تعصف بها الحركة منذ القدم. هذه الذرات تتحرك بانحراف قليل. فتلاقت ذرات فوجدت الأرض، وتلاقت أخرىٰ فوجدت الشمس، وهكذا نشأ العالم كله دون أن يخلقه إله... هذه هي النظرية، وذلك هو الفيلسوف القائل بها، وتلك هي عقيدته.

ومع ذلك يزعم الأشاعرة أن لا بد منها؛ ليثبت وجود الله والنبوة والقيامة! تقليد في الفقه لإمعات، وتقليد في العقيدة لمن ليست لهم عقيدة، ذلك حال المسلمين اليوم.

أما الصوفية فلسنا في حاجة إلىٰ أن نشير إلىٰ أنهم يقلدون دراويشهم، حتىٰ في معصية الله، فضلًا عن كبار مشايخهم، أما الحكومات الإسلامية فتبيح البغاء والميسر والفسق، وتحكم بغير ما أنزل الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. تحكم بقانون نابليون، وقانون فلان وعلان، ممن عرفوا بالمروق والإلحاد؛ فجعلوهم آلهة، فأضحت الأمم الإسلامية شرًّا في

كفرها[١] من اليهود والنصارىٰ!!...

ما قلد اليهود، والنصارىٰ في دينهم غير علمائهم، أما الأمم الإسلامية، فأبت إلا أن تقلد الملحدين الزنادقة من غير جنسهم، فإذا دعيت إلىٰ كتاب الله أعرضت؛ أي زان في مصر يجلد اليوم، ويفضح؟

إن الزناة في مصر هم الذين يدوي بأسمائهم هتاف المجد.. أي مراب في مصر يجزىٰ عن خبثه؟ أي سارق تقطع يده؟ أي وأي وأي؟؟ واهًا لمصر!! وواها للشرق الإسلامي كله، يحادون الله ورسوله، ويشاقونهما، ثم يسألون الله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]... ويعجبون لماذا يستغلهم عدوهم، ويستعبدهم الاستعمار؟ يا قوم: في عقائدكم، وسيركم جواب ما تجهلون، أو ما تتجاهلون.

لقد طبق محمد ﷺ القرآن تطبيقًا صحيحًا، فكانت تلك الأمة التي الْتَفَتَ لها مهللًا الكون، وطبقه من بعده أصحابه، فانظروا، إنه لم يمض قرن حتىٰ كانت الإمبراطورية الإسلامية أوسع من أية إمبراطورية اليوم، فقد رف لواؤها الخفاق بالبصر إلىٰ ما وراء الهند، وكان ظله الرفاف هنالك في أسبانيا. فإذا شئتم أن تكونوا سادة العالم وحكامه، فإليكم كتاب الله؛ طبقوه كما صنع الصديق، وكما فعل عمر، أما أن تحكموا بقانون وضعي من قوانين الزندقة،، والإلحاد، والفجور، ثم تسألون وتتساءلون عن علة انحطاطكم، واستعماركم، فذلك هو الجهل، بل ذلك هو الحمق والغباء.



(١) من باب كفر الصفة، وليس من باب كفر العين. (ض).